مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة السادسة، العدد الحادي عشر
خريف وشتاء ١٤٣١-١٤٣٢هـ/٢٠١٠-٢٠١١م
صفحة ١٥٥- ١٤٢

ابنُ دُريد الأزديّ وإسهاماته الحضارية

فرامرز ميرزايي[١]*، علي سليمي[٢]

١. أستاذ مشارك في اللغة العربية وآدابها بجامعة بو علي سينا
٢. أستاذ مشارك في اللغة العربية وآدابها بجامعة الرازي

(تاريخ الاستلام: ٨٩/٢/٣ ؛ تاريخ القبول: ٨٩/٤/١٩)

الملخّص

قد صرّح أكثر من مصدر أن القرن الرابع الهجري يعدّ صورة متميزة من الحضارة الإسلامية فالأسماء اللامعة في العلوم المختلفة، تحيّر عقول الباحثين، منها «ابن دريد الأزدي» الذي كان من الشائع في تراجم هذا العصر أن يقال إنّ فلاناً رحل إلى البصرة وأخذ العربية والأدب من ابن دريد، وذلك لأن المعرفة اللغوية التي كانت تعد «أم المعارف» والمرضع الأوّل لسائر العلوم قد انتهت إليه وهذا ما جعل إسهامه في ازدهار العلم والحضارة كبيراً جداً. فما تتلمذ عند عالم جمع غفير من العلماء مثلما تتلمذوا عند ابن دريد، فذكرت التراجم أربعة وستين تلميذا له، من أشهرهم: أبو علي القالي، المرزباني، السيرافي، ابن شاذان، أبو الفرج الاصبهاني، ابن خالوية، الرماني، الآمدي، أبو علي الفارسي.

لابن دريد تأثير هام على كبار النهضة الأدبية في بلاد الفرس كأمثال بديع الزمان الهمذاني الذي أنشأ فن المقامات متأثرا بأحاديث ابن دريد، وصاحب بن عباد الذي كتب جوهرة الجمهرة. كان ابن دريد أوسع أقرانه علماً وأقدرهم على الشعر، فتصدر في العلم ستين سنة ولقب «بأشعر العلماء وأعلم الشعراء». ولم تنحصر إسهاماته الحضارية على التعليم فحسب فقد كان اتصاله بآل ميكال وإنشاده مقصورته الشهيرة، خلق مادة ثقافية نادرة اعتنى بها كثير من المتقدمين والمتأخرين، فرأى بعض القدامى ضرورة استظهارها حتى تكتمل للأديب ثقافته الأدبية. فهذه المكانة الفريدة جعلته صانعا لعمالقة العلم والأدب الذين شيدوا الحضارة العربية الاسلامية في القرن الرابع، وبما انّ الطاقة الإنسانية هي من أهم العوامل في بناء الحضارة وازدهارها، كان لأبن دريد في صنع هذه الطاقة الإنسانية حصة الأسد حسب ما وصل إلينا من المستندات التاريخية.

الكلمات الرئيسية

ابن دريد، الحضارة الإسلامية، المعرفة اللغوية.

---

* الكاتب المسؤول الهاتف: ٠٩١٨٣١٤٤٣٩٧ E-mail: mirzaei.f@basu.ac.ir

مقدمة

تركزت الدراسات التي تعنى بالحضارة الإسلامية على القرن الرابع الهجري، فأعلام هذا القرن الذين أضاءوا الطريق للأجيال من بعدهم كثيرون جدا. إن جيل القرن الرابع الهجري هو أعظم مجموعة من المفكرين والأدباء في تاريخ الثقافة الإسلامية (روسون، ١٩٩٦، ص٣١٦). ولا حاجة إلى الدليل لذلك اكثر من تسمية بعضهم كأمثال: ابن سينا، الفارابي، البيروني، أبو حيان التوحيدي، الباقلاني، الماوردي، ابن جني، الغزالي، مسكوية، أبو الفرج الاصفهاني، أبو القاسم الزجاجي، ابن جني، الجرجاني، ابن النديم، ابن دريد الأزدي وأبو هلال العسكري وغير هؤلاء من أعلام القرن الرابع الهجري. فهذا ما جعل القرن الرابع الهجري صورة متميزة من الحضارة الإسلامية. من يراجع الكتب التاريخية يجد أن الحضارة العربية الإسلامية بلغت ذروتها في أرجاء العالم الإسلامي آنذاك وكانت بغداد عاصمة الحضارة مركزا للعلم وكان الخليفة يحترم العلماء كثيرا، ولم يقتصر المد الحضاري على بغداد بل كان قد امتد إلى ايران والشام ومصر وقرطبة.

إنّ هذه الحركة الحضارية الرائعة كانت ذات آثار عظيمة في تاريخ النهضة العلمية والثقافية العربية- الإسلامية، والتي ما كانت لتبلغ هذا الطور المتقدم لولا المناخ الفكري- الاجتماعي والسياسي المؤاتيين ولولا التربة الانفتاحية الحضارية الخصبة، التي غذّت فروع المعرفة الإنسانية المختلفة. فأصبح العقل العربي والاسلامي في العصر العباسي عقلاً متفلسفاً، منفتحاً، كما أصبح عقلاً علمياً، لا من حيث فهمه وفقهه بعلوم الشعوب والحضارات الأخرى، بل أيضاً من حيث إسهامه فيها وإضافاته الجديدة، حتى ليضيف علوماً لأول مرة في تاريخ الحضارة الإنسانية على نحو ما أضاف الخوارزمي علم الجبر. كان هذا العقل قد أظهر نضجه العلمي وإحكامه لوضع العلوم منذ القرن الثاني للهجرة، ممّا نراه جليّاً في العلوم اللغوية والدينية ومباحث الكلام والتاريخ والطب والفلك والرياضيات (جراد، د.ت).

كيف حصل هذا الازدهار؟ وما هي إسهامات ابن دريد، كعالم لغوي كبير، في صنعه؟ هناك عوامل كثيرة لازدهار الحضاري، ذكرها المعنيون بهذا المضمار - ليس المجال هنا لذكرها - ولكنهم أهملوا عامل المعرفة اللغوية وتأثيرها فيه وكان لابن دريد أثر هام في نشر هذه المعرفة اللغوية بين أوساط العلمية في القرن الرابع الهجري مما هيأ مناخا لغويا مناسبا للازدهار. فهذا المقال يسعى لإثباته حسب المستندات التاريخية.

المعرفة اللغوية أساس للحضارة

تؤكد النظرية اللغوية المعاصرة نفي البعد الإشاري للغة وتعول بدلا من ذلك على عقد الصلة بين اللغة والتصورات الذهنية فاللفظ اللغوي لا يشير إلى الأشياء بل يثير في ذهن المتلقي أفكارا وتصورات (بريري، ١٩٩٦، ص٦٩). أي لم يكن بإمكان الفصل بين اللغة والفكر ان البعد اللغوي عامل أساسي في أية معرفة إنسانية وحضارية ثم ان الوعي اللغوي يؤدي إلى الوعي القومي الذي بدوره يعد أحد العوامل الأساسية لبناء الحضارة.

العربية كانت لغة الحضارة في القرن الرابع وكان اهتمام الخلفاء والأمراء وعامة الناس في قرني الثالث والرابع باللغويين مدهشا جدا، لأنهم حسب ما روي في التاريخ في حاجة ماسة إليهم لتعليم أبنائهم وتأديبهم (احمدوند، ٢٠٠٩، صص١٣-١٤)، هذا ما اشار اليه شوقي ضيف قائلا: «يخيل إلى الانسان كانما اولاد العامة جميعا كانوا يختلفون إلى الكتاتيب لما استقر في نفوس آبائهم من ضرورة التعلم وانه مثل الطعام والشراب لايمكن الاستغناء عنه وأن من لم يتعلم في صغره فاته العلم في كبره» (ضيف، ١٩٧٥، ص١٦٩).

كثرت علماء اللغة في هذا العصر وكل من يريد الدخول في باب العلم في شتي فروعه يدخله من علم اللغة لانه لايمكنه التعلم الا به، فكان طبيعيا أن تظهر معاجم تحصي كلمات اللغة احصاء دقيقا دالة على معانيها، حتى اذا كان ابن دريد محمد بن الحسن الف معجمه اللغوي الكبير «الجمهرة في اللغة» والذي يعد عملا باهرا ثم ان فكرة تعليم اللغة للناشئة دفعت اللغويين

إلى أن يجمعوا كثيرا من الالفاظ والعبارات الغريبة في طائفة من الموضوعات والمعاني ويؤلفوا فيها كتابا مثل كتاب الالفاظ لابن السكيت ثم عنوا في هذا العصر اشد العناية بجمع دواوين الشعر القديم جمعا علميا مضيفيين عليه في الغالب شروحا للتوضيح.. كأن اللغويين جعلوا فكرة الاختيار من الشعر القديم والحديث تعم في جميع البيئات وظهرت عندهم بقوة فكرة عمل مختارات من الشعر والنثر تقرّبهما من افهام الشباب والناشئين عامة كما صنع المبرد في كتابه الكامل وحاول بعض اللغويين اتخاذ بعض القصص وسيلة تعليمية اذ كانوا يقصون بعض حكايات عن الاعراب مدمجين فيها بعض الفاظ غريبة كي يسهل على الناشئة حفظها وممن اشتهر باتخاذ هذه الوسيلة التعليمية ابن دريد اذ الف اربعين أقصوصة قصيرة كان يسمي كلا منها حديثا لغرض التعليم اللغوي وتبسيطه وتيسيره وبذلك اوحى لبديع الزمان أن يؤلف فيما بعد مقاماته مبتغيا بها الوجهة التعليمية نفسها (م.ن، ص١٤٥). أضف إلى ذلك المحاولات البلاغية التي كانت تعمد إلى فهم اللغة فهما دقيقا وتمهيد الطريق لظهور النقد الأدبي العربي فخطت البلاغة خطوات واسعة في سبيل تحولها إلى علم في هذا العصر فكذلك خطا النقد بدوره خطوات كثيرة نحو تقنين مسائله. والملاحظة الهامة ان البيئة التي بدأت محاولات البلاغة والنقد هي البيئة اللغوية ثم انتقل إلى بيئة المعتزلة التي استطاعت ان تتمثل في نقدها روح العصر مع المحافظة على الروح العربية والتقاليد الموروثة (م.ن، صص١٥٣-١٥٤).

ومما ساعد على الحركة العلمية والعقلية في العصر العباسي الثاني هو المجالس والمحاضرات وكانت الطريقة الشائعة، خاصة محاضرات المحدثين واللغويين، هي الاملاء، ويعرض السيوطي لإملاء اللغويين قائلا: «أملى ثعلب مجالس عديدة في مجلد ضخم، وأملى ابن دريد مجالس كثيرة وأملى ابو محمد القاسم الانباري وولده ابوبكر ما لا يحصى.. وآخر من علمته أملي على طريقة اللغويين ابو القاسم الزجاجي له أمال كثيرة في مجلد ضخم» (السيوطي، د.ت، ص٣١٣).

إن هذه المحاولات الكثيرة التي حدثت في البيئة اللغوية مهدت الارضية المناسبة لثراء اللغة العربية لتعي العلوم الجديدة في النهضة العلمية وكان الفضل يرجع إلى اللغويين لانهم هم الذين اهتموا بتعليم الناشئيين تعليما

لغويا ثم إن العلماء في كل فرع علمي تتلمذوا لهم وراجعوهم لحل مشاكلهم اللغوية فحصل لهم التخزين اللغوي الذي جعلهم قادرين على انتقال العلوم الحديثة دون أية صعوبة تذكر. هكذا أسسوا أساس الحضارة الجديدة لان المعرفة اللغوية أو ما يسمى « أم المعارف » هي المرضع الاول لسائر العلوم و«قد ادركت المعرفة اللغوية قمة نضجها باكتمال العلم الذي هو ظهيرها الابيستيمي، نعني علم اصول النحو. وكان علم اصول النحو في مجال المعارف اللغوية هو البديل المكافئ لعلم اصول الفقه في مجال المعارف الشرعية فانه قد كان في اللحظة نفسها الثمرة الجنية للمصاهرة التي تمت بين كل العلوم من جهة والفلسفة من جهة مقابلة، هذه التي كان حضورها في ثقافة العصر حضورا اظطراريا بحيث لم يعد التزود منها بالنسبة إلى الأديب والناقد والمؤرخ والمشتغل بأمور الشريعة وقضايا العقيدة بذخا مسرفا ولا ترفا بين الكماليات (المسدي، ١٩٩٥، ص١٣٤).

مكانة ابن دريد اللغوية وإسهاماته الحضارية

إن للمدارس النحوية أثر كبير على الازدهار الحضاري وكان لمدرسة البصرة حصة الأسد في هذا الازدهار والرقي العقلي. أشار ابن سلام الجمحي إلى شغف أهل البصرة باللغة ودقائقها قائلا: «وكان لاهل البصرة في العربية قدمة وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية» (ابن سلام الجمحي، ١٩١٣، ص١٢). يعتقد شوقي ضيف ان احتكاك أصحاب المدرسة البصرية بالثقافة الايرانية المتمثل في مدرسة جنديسابور الفارسية التي كانت تدرس فيها الثقافات اليونانية والفارسية والهندية، مما جعل عقل البصرة كان ادق واعمق من عقل الكوفة، لذلك كان طبيعيا أن نجدها اكثر استعدادا لوضع العلوم وبها اقدم المترجمين، لانها قد سبقتها إلى الاتصال بالثقافات الاجنبية (ضيف، د.ت، ص٢٠-٢١). وقد تسلمت من المدرسة البصرية مدرسة الكوفة ثم المدرسة البغدادية وما خلفها من المدرستين الأندلسية والمصرية (م.ن، ص١٥٠).

كان أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ممن أكسبوا مدرسة البصرة شهرة وازدهارا بتمييزه في العلم والشعر (بروكلمان، د.ت، ج٢، ص١٧٧). فقيل في شأنه: «فهو الذي انتهى إليه علم لغة البصريين، وكان أحفظ

الناس وأوسعهم علماً وأقدرهم على شعر، وما ازدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحامهما في صدر خلفٍ الأحمر وأبي بكر ابن دريد... وتصدر العلم ستين سنة» (أبو طيب اللغوي، ٢٠٠٣، ص١١١). كان له ولتلامذته اثر هام في الحركة اللغوية والعلمية في القرن الرابع حيث بامكاننا ان نقول ان ابن دريد هو الروح الكامن وراء الازدهار الحضاري في القرن الرابع. فمن «الشائع في تراجم هذا العصر أن يقال إنّ فلانا رحل إلى البصرة أو بغداد فسمع الحديث من فلان وقرأ النحو على فلان وأخذ العربية والأدب من ابن دريد» (درويش، ١٩٩٤، ص٢٠). ان هذا ليدل على خطورة مكانة ابن دريد في عصره.

تعرض كتب التراجم لحياة ابن دريد ونحن نكتفي بما ورده بروكلمان (د.ت، ج٢، ص١٧٧) في اختصار شديد : « كان ابن دريد من ازد عمان ولد بالبصرة سنة ٢٢٣هـ وأخذ فيها عن ابي حاتم السجستاني وابي الفضل الرياشي وابي عثمان الاشناندانى ولما غلب الزنج على البصرة وقتلوا اكثر اهلها هرب ابن دريد مع عمه الحسين إلى عمان وطن قومه الازد وبقي بها اثنتي عشرة سنة ثم قصد خراسان ونال حظوة وإليها عبدالله بن محمد بن ميكال وابنه إسماعيل ومدحهما بقصيدته المشهورة كما صنف لهما كتاب الجمهرة في اللغة ولما عزل إسماعيل سنة ٣٠٨هـ، قدم ابن دريد إلى بغداد وعين له الخليفة المقتدر راتبا شهريا ليتوفر على العناية بالعلم والتعليم. توفي ابن دريد في بغداد سنة ٣٢١هـ».

يبدو فيما ذكره المؤرخون لحياة ابن دريد انه حلقة وصل للتعليم في قرني الثالث والرابع فلايعرف استاذ آخر أن يتخرج على يديه جمع غفير من العلماء مثلما يعرف عن ابن دريد. ذكرت التراجم ثلاثة وعشرين أستاذا وأربعة وستين تلميذا له (آذرنوش، ٢٠٠٨، ١٣٠). من أشهر تلامذته: أبو علي القالي، المرزباني، السيرافي، الرماني، ابن شاذان، أبو الفرج الاصفهاني، ابن خالوية، أبو القاسم الزجاجي، الآمدي، أبو علي الفارسي وأبو الحسن علي بن أحمد المشهور بغلام ابن دريد» (م.ن). ولهم أثر أي أثر في ازدهار العلم والحضارة في القرن الرابع الهجري.

الإسهام الحضاري في اللغة

كان بغداد آنذاك حاضرة العلم ويكفي لنا، لتاثير ابن دريد على الحركة العلمية، أن نشير إلى انه حين كان في بغداد يراجعونه العلماء ويتلمذون منه العربية والأدب واللغة. يقول المسعودي في كتابه "مروج الذهب": «وكان ابن دريد ببغداد ممن برع في زماننا هذا في الشعر، وانتهى في اللغة، وقام مقام "الخليل بن أحمد" فيها، وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين، وكان يذهب بالشعر كل مذهب، فطوراً يجزل، وطوراً يرق، وشعره أكثر من أن نحصيه أو نأتي على أكثره وصفه الخطيب البغدادي بأنه أعلم الشعراء وأشعر العلماء» (ابن خلكان، ٢٠٠٣، ص٣٢٠٣).

إن أصحاب المدارس النحوية في البصرة والكوفة وبغداد تأثروا بابن دريد. فهذا هو «أبو سعيد الحسن بن عبدالله المرزباني السيرافي» (٣٦٨-٢٨٠هـ) كان قد قرأ على أبي بكر بن مجاهد القرآن، وعلى أبي بكر بن دريد اللغة، كان فقيهاً على مذهب العراقيين، وورد إلى بغداد، وله من الكتب: كتاب شرح سيبويه، ألفات القطع والوصل، كتاب أخبار النحويين البصريين، كتاب شرح مقصورة ابن دريد، كتاب الإقناع في النحو لم يتم، فتممه ابنه يوسف، لم يكد يبلغ العشرين حتى خرج إلى عمان وتفقه على شيوخها، ثم تحول إلى بغداد فدرس اللغة على ابن دريد والنحو على ابن سراج وتعمق الفقه تعمقا جعله يختار لمنصب القضاء في الجانب الشرقي لبغداد وبلغ من اجلال الناس له أن كانوا يخاطبونه بإمام المسلمين وشيخ الإسلام (ضيف، د.ت، ص١٤٥). كان مناظراته التي أفحم فيها متي بن يونس مشهورة. أخذ عنه أبو حيان التوحيدي علم اللغة وذكره بإجلال كثير في كتبه، وبألقاب كـ«شيخنا» وعرفه في كتابه «البصائر والذخائر» (التوحيدي، ٢٠٠٣أ، ص٢٢٨١) بانه «شيخ زمانه ثقةً ومعرفةً ودينا وفضلا» وذكر في مكان آخر «كان امام عصره حفظا وضبطا وعرافة وثقة» ويذكر في مثالب الوزيرين (التوحيدي، ٢٠٠٣ب، ص٤٢٦) إن صاحب بن عباد يتعصب له ويقدمه على أهل زمانه».

أما الرماني (٣٨٤-٢٧٦هـ) فهو أبو الحسن علي بن عيسى بن علي بن عبدالله الرماني النحوي المتكلم؛ أحد الأئمة المشاهير، كان إماماً في

علم العربية علّامةً في الأدب، في طبقة أبيعلي الفارسي وأبي سعيدٍ السيرافي. أخذ عن ابن السراج وابن دريدٍ والزجاج، وأخذ عنه أبو حيان التوحيدي. وله تصانيف في جميع العلوم من النحو واللغة والنجوم والفقه والكلام على رأي المعتزلة، وكان يمزج كلامه في النحو بالمنطق (ياقوت الحموي، ٢٠٠٣، ص٣١٣٩). كان إماما في اللغة والأدب وذا معرفة بعلم الكلام كما تدل على ذلك عبارة ابن خلكان: «جمع علم الكلام والعربية». كان للرماني باع طويل في التفسير على طريقة المعتزلة اذ وضع تفسيرا للقرآن، بلغ من قيمته ان قال صاحب بن عباد ردا على من اقترح عليه ان يصنف تفسيرا: « هل ترك علي بن عيسي الرماني شيئا؟» (التوحيدي، ١٩٩٥، ص٣١).

أما أبو علي الفارسي (٢٨٨-٣٧٧هـ) فهو الحسن بن أحمد الفارسي، بن عبدالغفار، ابن سليمان الفارسي، المشهور في العالم اسمه، المعروف تصنيفه ورسمه، أوحد زمانه في علم العربية. كان كثير من تلامذته يقول: هو فوق المبرد. وكان إمام وقته في علم النحو. أقام بحلب عند سيف الدولة بن حمدان مدة، وكان قدومه عليه في سنة إحدى وأربعين وثلثمائة، وجرت بينه وبين أبي الطيب المتنبي مجالس، ثم انتقل إلى بلاد فارس وصحب عضد الدولة ابن بويه وتقدم عنده وعلت منزلته حتى قال عضد الدولة: أنا غلام أبي علي الفارسي في النحو، وصنف له كتاب الإيضاح، والتكملة في النحو، وقصته فيه مشهورة (ياقوت الحموي، ٢٠٠٣، ص١٦٢٢). عده شوقي ضيف من ائمة اللغة لمدرسة البغداد النحوية وذكر انه حين رحل إلى بغداد عكف على حلقات البصريين مثل ابن السراج والاخفش الصغير والزجاج وابن دريد (ضيف، د.ت، ص٢٥٥). مشيرا إلى تاثيره على ابن جني: كان عقل ابي على من الخصب بحيث ملأ نفس ابن جني تلميذه، وهو يكثر من ذكر آرائه في كتابه الخصائص وغيره حتى ليبدو كأنّ كنزا سائلا بمسائل اللغة والنحو وما يجري فيها من ضبط الاصول وضبط الاقيسة والعلل وقد استضاء به في كثير من الاصول الكلية التي حررها في كتابه الخصائص (م.ن، ص٢٥٧).

وأخيرا الزجاجي (المتوفي ٣٣٧هـ) فهو أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي النحوي البغدادي داراً ونشأة، النهاوندي أصلاً ومولداً؛

كان إماماً في علم النحو، وصنف فيه كتاب "الجمل الكبرى" وهو كتاب نافع لولا طوله بكثرة الأمثلة. أخذ النحو عن محمد بن العباس اليزيدي وأبي بكر ابن دريد وأبي بكر ابن الأنباري. سكن دمشق وانتفع الناس به وتخرجوا عليه. كتابه "الجمل" من الكتب المباركة لم يشتغل به أحد إلا وانتفع به (ابن خلكان، ٢٠٠٣، ص١٩٢٤)، قد عدّه شوقي ضيف من أئمة مدرسة البغداد النحوية وكتاب الجمل - وهو مختصر في قواعد النحو نال شهرة مدوّية في العصور الوسطي، اذ عكف عليه العلماء بالدرس والشرح حتى قالوا إن شروحه زادت عن مائة وعشرين شرحا (ضيف، د.ت، ص٢٥٢). استطاع الزجاجي ان يكمل علم "أصول النحو" وذلك بكتابه "الإيضاح في علل النحو"، وهذا الكتاب مع كتابي "الصاحبي في فقه اللغة" و"سنن العرب في كلامها" لأحمد ابن فارس (المتوفي ٣٩٥هـ) و"الخصائص" لشيخ النحاة أبي الفتح ابن جني (المتوفي ٣٩٢هـ) تعد أعمدة مركزية لبناء التراكم المعرفي الذي شيّده القرن الرابع الهجري (المسدي، ١٩٩٥، ص١٣٤).

يبدو أن هذا القليل يكفي لإثبات تأثير ابن دريد في المعرفة اللغوية في ازدهار الحضاري في القرن الرابع الهجري.

الإسهام الحضاري في الأدب والنقد

من يراجع المصادر التاريخية للقرن الرابع يتقين ان تأثير ابن دريد على الحضارة الإسلامية والعربية لم يقتصر في اللغة والنحو فحسب بل إن تأثيره على الأدب والنقد كان واضحا جليا وذلك عن طريق تلامذته الذين شربوا من منهله العذب الغزير، فنذكر منهم أبا الفرج الاصفهاني، الآمدي، أبا هلال العسكري، أبا علي الحاتمي والمرزباني.

أما أبو الفرج الاصفهاني (٢٨٤-٣٥٦) فهو من مشاهير الكتّاب في القرن الرابع، ولد بأصبهان واشتهر منسوبا إليها، ثم انتقل إلى بغداد وانصرف فيها إلى طلب العلم ودرس على جلة من علماء عصره بينهم ابن دريد (المكي، طاهر أحمد، ١٩٩٩، ص٢٥٩). عده زكي مبارك «أكبر مؤلف عرفته اللغة العربية» (مبارك، د.ت، ج١، ص٢٨٨). يعد كتابه "الأغاني" وبحق، من خيرة ذخائر التراث العربي، (المكي، طاهر أحمد،

١٩٩٩، ص٢٦١) ولا يوجد في المؤلفين من بعده من لم يعول عليه ويندر أن نجد باحثا في تاريخ الأدب أو تاريخ الاسلام لم يتخذ كتاب الأغاني مرجعا له (مبارك، د.ت، ج١، ص٢٨٨). عرفه ابن خلكان بأنه «وقع الاتفاق على أنه لميعمل في بابه مثله، يقال إنه جمعه في خمسين سنة، وحمله إلى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه. وحكى عن الصاحب بن عباد أنه كان في أسفاره وتنقلاته يستصحب حمل ثلاثين جملاً من كتب الأدب ليطالعها، فلما وصل إليه كتاب "الأغاني" لم يكن بعد ذلك يستصحب سواه، استغناءً به عنها» (ابن خلكان، ٢٠٠٣، ص٢٢٦٣).

أما أبو القاسم الآمدي (م ٣٧٠هـ) فذكر ياقوت في معجم الأدباء نقلا عن القاضي أبو القاسم التنوخي عن أبيه أبي علي المحسن: أن مولد أبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي بالبصرة، وأنه قدم بغداد يحمل عن الأخفش، والحامض، والزجاج، وابن دريد، وابن السراج وغيرهم اللغة والنحو (ياقوت الحموي، ٢٠٠٣، ص١٦٢٢). عدّه الباحث الأدبي الكبير إحسان عباس «أول ناقد متخصص، جعل النقد أهم ميدان لجهوده» (عباس، ١٩٩٧، ص١٤٢). فكادت حياته العقلية قصرت على اللغة والنقد وأهم ما بقي من آثار الآمدي هو كتابه «الموازنة بين ابي تمام والبحتري» وهو «وثبة في تاريخ النقد العربي.. ذلك لانه ارتفع عن سذاجة النقد القائم على المفاضلة بوحي من الطبيعة وحدها دون تعليل واضح» (م.ن، ص١٤٥). فالكتاب يضعه في الصف الاول ويقدمه على كثير من الناقدين واسلوبه فيه من أدق الأساليب وأصفاها وأبعدها من اللغو والفضول وآراؤه في نقد الشعر آراء جيدة سديدة نعجب لها اليوم أشد العجب وبيننا وبينه عشرة قرون» (مبارك، د.ت، ج٢، ص١٠٢). يتبين من الدقة اللغوية التي أبداها الآمدي في كتابه النقدي هذا، أنه متأثر في هذا الجانب، بأستاذه ابن دريد.

وأما أبو علي الحاتمي فهو محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي (-٣٨٨هـ) المشهور بأبي علي «ذكره الخطيب في تاريخه فقال: أدرك ابن دريد وأخذ عنه، وهو من حذاق أهل اللغة والأدب» (الحموي، ٢٠٠٣، ص٤٥٩٦). عده زكي مبارك من الشخصيات القوية التي غابت أخبارها عن الناس فلم يعرفها الا القليل (مبارك، د.ت، ج٢، ص١٣٥). اعتبره

إحسان عباس «متفردا بين النقاد بكثرة الحفظ وتوفر الشواهد على نحو لايجاريه فيه معاصروه أو من بعدهم ولذا كانت نظراته اساسا صالحا يتعلم منه الدارسون» (عباس، ١٩٩٧، ص٢٤٥). ألّف أبو علي الحاتمي عدة كتب في اللغة والأدب والنقد وكان من المولعين بدرس الشعر ونقده وإنه كان من أئمة زمانه في هذا الباب وقد ضاعت كتبه النقدية ولم يبق منها إلا شواهد ضئيلة.

أما أبو هلال العسكري فهو أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران اللغوي العسكري، وله في اللغة: كتاب سماه بالتلخيص وهو كتاب مفيد، وكتاب صناعتي النظم والنثر وهو أيضاً كتاب مفيد جداً (الحموي، ٢٠٠٣، ص١٨٦٣). أبو هلال من أوائل الكتاب الذين حاولوا أن يوجهوا النقد وجهة بلاغية تعتمد على التعريفات والتقسيمات مع العناية بالنصوص (مطلوب، ١٩٧٣، ص٩٣) وعرفه زكي مبارك (د.ت، ج٢، ص١١٧) بأنه شخصية جذابة لها اثر عظيم في اللغة العربية ولو لم يكن له إلا كتاب الصناعتين لكفى دلالة على فضله وبراعته وتفوقه فيما عني به من درس الشعر والنثر وتعقب مذاهب الشعراء والكتاب، وكان متصلا بصاحب بن عباد فأشاد بأدب الصاحب، وأجمل أثر لأبي هلال العسكري هو كتاب صناعتين: الكتابة والشعر وقد اراد أن يودعه جميع ما يحتاج اليه في صنعة الكلام نثره ونظمه من غير إخلال ولا إسهاب (م.ن).

وأخيرا أبو عبيدالله محمدبن عمران بن موسى بن سعيد بن عبيدالله، الكاتب المرزباني (٣٨٤-٢٩٧هـ) الخراساني الأصل، البغدادي المولد، صاحب التصانيف المشهورة؛ وتواليفه كثيرة، وكان ثقة في الحديث ومائلا إلى التشيع في المذهب، وروى عن أبي القاسم البغدادي وأبي بكر ابن دريد وأبي بكر ابن الأنباري، وروى عنه أبو عبد الله الصيمري وأبو القاسم التنوخي وأبو محمد الجوهري وغيرهم (ابن خلكان، ٢٠٠٣، ص٣٢٦٣). أشار زكي مبارك (د.ت، ج٢، ص١٤٨) أن مجموعة مؤلفات المرزباني تدور حول نقطة واحدة هي تنظيم الثقافة الأدبية. في الموشح عبارات نقدية تكاد تبلغ الغاية في دقة الوصف وله آراء نقدية في كتابه هذا، اهتم بها النقاد المعاصرون.

إن التخزين اللغوي الذي حمله تلامذة ابن دريد من أستاذهم، مما ساعدهم على إعطاء الدفعة القوية لحركة النقد في القرن الرابع الهجري وهذا مبرهن فيما أبدوه أولئك التلامذة من الآراء النقدية التي أصبحت أسساً للنقد العربي.

ابن دريد والحضارة الأندلسية

اما الأندلس فكان أول من نقل إليها علم الأدب: أبو علي اسماعيل ابن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سليمان القالي هذا ما صرح به بروكلمان (د.ت، ج٢، ص٢٧٧) وكان أبو علي القالي (٢٨٨-٣٥٦) من أحسن تلامذة ابن دريد، عرفه ابن خلكان بأنه «كان أحفظ أهل زمانه للغة والشعر ونحو البصريين. أخذ الأدب عن أبي بكر ابن دريد الأزدي وأبي الأنباري ونفطويه وابن درستويه وغيرهم. وأخذ عنه أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي صاحب مختصر العين، وله التواليف منها: كتاب الأمالي وكتاب البارع في اللغة، وهو يشتمل على خمسة آلاف ورقة، وكتاب المقصور والمدود وكتاب في الإبل ونتاجها وكتاب في حلي الإنسان والخيل وشياتها وكتاب مقاتل الفرسان وكتاب شرح فيه القصائد المعلقات، وغير ذلك. طاف البلاد، وسافر إلى بغداد في سنة ثلاث وثلثمائة، ودخل بغداد في سنة خمس وثلثمائة، وأقام بها إلى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة، وكتب بها الحديث، ثم خرج من بغداد قاصداً الأندلس. ودخل قرطبة لثلاث بقين من شعبان سنة ثلاثين وثلثمائة واستوطنها، وأملى كتابه الأمالي بها» (ابن خلكان، ٢٠٠٣، ص٣٩٩).

ذكر ياقوت الحموي (٢٠٠٣، صص١٤٦١-١٤٦٢) وفادته إلى قرطبة قائلا: «كان أقام ببغداد خمساً وعشرين سنة، ثم خرج منها قاصداً إلى المغرب، سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، ووصل إلى الأندلس، في سنة ثلاثين وثلاثمائة، في أيام عبدالرحمن الناصر، وكان ابنه الأمير أبو العباس، الحكم بن عبدالرحمن، من أحب ملوك الأندلس للعلم، وأكثرهم اشتغالاً به، وحرصاً عليه، فتلقاه بالجميل، وحظي عنده، وقرب منه، وبالغ في إكرامه، ويقال: إنه هو الذي كتب إليه، ورغبه في الوفود عليه، واستوطن قرطبة، ونشر علمه بها.. وكان إماماً في علم العربية، متقدماً فيها، متقناً لها، فاستفاد الناس منه، وعولوا عليه،

واتخذوه حجة فيما نقله، وكانت كتبه على غاية التقييد، والضبط والإتقان، وقد ألف في علمه الذي اختص به تآليف مشهورة، تدل على سعة علمه وروايته، وحدث عنه جماعة، ولعله آخر من حدث عنه أحمد بن أبان، بن سيد الزبيدي».

بلغت قرطبة اوج عزّها في عهد عبد الرحمن الثالث أو عبد الرحمن الناصر الخليفة الأندلسية (٣٠٠-٣٥٠هـ) فله عناية شديدة بالثقافة والنشاة العلمي والفكري. وأما اهتمامه بالثقافة فيبدو في كثرة من شهده عصره من العلماء في كل فروع المعرفة ففي اول عهده ظهر كتاب عقد الفريد لابن عبد ربه (٣٢٨هـ) والذي يعد من المصادر الأدبية الرئيسية وفي سنة ٣٣٠هـ. استقدم الناصر العالم اللغوي الكبير أبا علي القالي الذي أصبح رائدا لنهضة لغوية ونحوية عظيمة في الأندلس (المكي، محمود، ١٩٩٩، ص٨٩).

أشار المؤرخ المغربي المقري إلى فضل قرطبة على عواصم العالم بأنها «تتفوق على عواصم العالم باربعة اشياء: القنطرة فوق نهرها؛ والجامع؛ والثالث مدينة الزهراء ولكن الرابع اعظمها وهو العلم» (هيلبراند، ١٩٩٩، ج١، ص١٩٢). كانت قرطبة في عهد الخلافة مركزا فكريا قبل اي اعتبار لذا كانت للتعليم افضلية واضحة (م.ن، ص١٩٢)، وان النهضة الفكرية التي جعلت قرطبة تنافس بغداد تتنازعها، بدأت حين استقدم ابو علي القالي، وباقتراحه انشأت مكتبة كبيرة ثم نقلوا علوم الاغريق والشرق إلى الغرب وبرزت في قرطبة مساهمات كبري في الموسيقى وعلم اللغة والجغرافيا والتاريخ والكيميا والطب والفلك.

لا مجال للنقاش ان الأندلسيين اتخذوا امثلتهم ومستوياتهم من اوطانهم الاولي في بداية امرهم على الاقل. فعندما جاءهم لامع بغدادي هو أبو علي القالي (٢٨٨-٣٥٦هـ) استقبلوه بترحاب شديد. كانت أحاديثه حول أمور معجمية ونحوية بالدرجة الاولى ولكنها تنطوي على مضامين تعبر عن ميوله الأدبية فدونت باخلاص تحت عنوان غير مستغرب: الامالي اي ما املاه الأديب (كاكيا، ١٩٩٩، ج١، ص٤٦٤). لأجل ذا يعزو الباحثون أهمية كبرى لإقامة أبي علي القالي في الأندلس وما حمل معه من كتب وما يقال عما نشره من معرفة أدبية. فقد وصل القالي إلى الأندلس عام ٣٣٠هـ بناء

على دعوة من الحكم المستنصر عندما كان وليا للعهد (عباس، ١٩٦٠، ص٤٤). ويبدو ان وصول القالي كان «يمثل نهضة في الدراسات اللغوية والأدبية في الأندلس.. وأثر القالي في الأندلس بحاجة إلى دراسة مستقلة ولكن يكفي أن يشار هنا إلى كثرة ما هاجر معه من كتب إلى الأندلس، فيها من الدواوين عدد جم وبخاصة دواوين الجاهليين والأمويين والمجموعات الشعرية المهمة كالمفضليات وشعر الهذليين والنقائض فما ادخله من دواوين الشعر: شعر ذي الرمة وعمروبن قميئة والحطيئة وجميل وابي النجم والنابغة الذبياني وعلقمة بن عبده والشماخ والاعشي وعروة بن الورد والنابغة الجعدي وكثيرعزة والاخطل وغير هؤلاء كثير» (م.ن، صص٤٤-٤٥). ونشاهد أن أعظم عصر أدبي في الأندلس فد بدأ في عهد الحجابة أي بعد عام ٣٦٦ (الجيوسي، ١٩٩٩، ج١، ص٤٨٨). وسبب ذلك يرجع إلى المحاولات العلمية التي بذلها القالي حيث تعرف الأدباء على الأدب المشرقي ونماذجه الرائعة.

من الشخصيات المؤثرة في الحركة العلمية في الأندلس هو أبو محمد الزبيدي (٣١٤-٣٧٩) تلميذ أبو علي القالي وكان احد الشخصيات المهمة في اشبيلية في ذلك الزمن وكان قاضيا شهيرا ولغويا ومؤدبا خاصا للخليفة هشام الثاني (بالنثيا، ١٩٩٩، ج١، ص٢٢١).

الثقافة الأدبية (المقصورة الدريدية)

لا تنحصر إسهامات ابن دريد في الازدهار الحضاري بتعلميه عددا غير قليل من العلماء الذين لهم اثر كبير على الرقي الحضاري في ميداني اللغة والنقد، وانّما انشد قصيدة طويلة تعدّ رائعة فريدة ليس لها نظير في القرن الرابع الهجري. سمّيت بالمقصورة لأنّ آخرها ألف مقصورة، ويقال: إنه أحاط فيها بأكثر المقصور. نظمها يمدح الشاه ابن ميكال وولده، ولروعة هذه القصيدة وجمالها فقد أطلق عليها (الملعونة) لأنه يقال إن كلّ من سمعها قال: لعنه الله ما أشعره! فيها من الحكمة ما يدل على ثراه الفكري، منها:

وَالنـاسُ كَالنَبـتِ فَمِـنهُم غَـضٌّ نَضـيرٌ عـودهُ مُـرُّ
رائِـــــــــــــــــقٌ الجَنـــــــــــــــــــى

وَمِنــهُ مــا تَقـتَحِمُ الــعَينُ ... دُقتَ جَناهُ اِنساعَ عَذباً في
فَــــــــــــــإن ... اللُّهـــــــــــــــى
مَـن ظَلَـمَ النـاسَ تَحامَـوا ... وَعَــزَّ عَنـــهُم جانِبـــاهُ
ظُلمَـــــــــــــهُ ... واحْتَمـــــــــــــى
من لَـم تُفِـدهُ عِبَراً أيّامُـهُ ... كانَ العَـمى أولـى بِـهِ مِن
مَـن لَـم يَعِظـهُ الـدَهرُ لَـم ... الهُـــــــــــــدى
يَنفَعـــــــهُ مـــــــا ... راح بِـهِ الواعِظُ يَومـاً أو
مَـن عَطَـفَ الـنَفسَ عَلـى ... غَـــــــــــــدا
مَكروهِهـــــــــــا ... كـانَ الغِنـى قَرينَـهُ حَيـثُ
إنّي حَلَبتُ الـدَهرَ شَطرَيهِ ... انتَـــــــــــــوى
فَقَـــــــــــــد ... أمـَرَّ لــي حينـا وَأحيانـاً
إذا بَلَـوتَ السَيفَ مَحموداً ... حَـــــــــــــلا
فَـــــــــــــلا ... تَذمُمـهُ يَومـاً أن تَـراهُ قَـد
والدَهــرُ يَكبــو بِالفَــتى ... نَبـــــــــــــا
وتـــــــــــــارَةً ... يُنهضُــهُ مـِن عَثـرَةٍ إذا
مِن كُلِّ ما نـالَ الفَتـى قَـد ... كَبـــــــــــــا
نِلتُـــــــــــــهُ ... وَالمَـرءُ يَبقـى بَعدَهُ حُسنُ
فَـإن أمُـت فَقَـد تَناهَـت ... الثَنـــــــــــــا
لَدَّتـــــــــــــي ... وَكُـلُّ شَـيءٍ بَلَـغَ الحَـدَّ
انتَهـــــــــــــى

(التبريزي، ١٩٩٥، ص١٢٣)

ظلـت "القصـيدة الدُّريديـة" مـن روائـع الشـعر العربـي عبـر عصـوره لتأثيرها الحيوي المتجدد ومصداقية الأحاسيس التـي عبَّرت عنهـا، وكذلك قدرتها علـى استيعاب أحـوال الحيـاة والأشـخاص والأشياء المحيطـة بهـا. تضمَّنت القصيدة تاريخاً، وبلاغة، وأخلاقاً، وحكماً، وأمثالاً، وشئوناً دينيـة. وعلى سبيل المثال ذكر "ابن دريد" أسماء شخصيات عربيـة كـان لهم شـأن كبير في تاريخ العرب أمثال "امرئ القيس"، و"أبي الجبر" و"ابن الأشـج"، و"جذيمـة الأبـرش"، و"يزيـد بـن المهلـب بـن أبـي صـفرة"، و"الزبـاء"،

و"عمرو بن عدي اللَّخمي"، و"سيف بن ذي يزن الحِميري" وغيرهم. وهو إذ يذكرهم كان يشير في اقتضاب شديد إلى أهم ما تميزوا به أو ما قاموا به من أعمال (آل ملحم، ٢٠٠١).

«المقصورة» قصيدةٌ عصماءُ تضمنت أمثالاً وحكمًا ومواعظ. ليس هنا المجال للبحث في قيمتها الأدبية ولكن من يراجع التاريخ يدهشه اهتمام الأدباء بها، فكيف شقت القصيدة الدريدية طريقها لتسهم اسهاما كبيرا في صنع الثقافة الأدبية وذلك بتاثيرها على الآخرين فاعتنى بها العلماء، والمربون، وأهل الأدب، وقرَّروا حفظها في المدارس والمعاهد الأزهرية، وفي المعاهد العلمية وقد اهتم بشَرَحَهَا عددٌ ليس بالقليل من فحول العلماء والأدباء، وقد ذكر منهم خمسة وأربعون شارحًا. ومن هؤلاء الشُّراح حسب ما وجده بروكلمان (ج٢، صص١٧٩-١٨٢) من نسخ خطي لهم: «شرح مقصورة ابن دريد لتلميذه ابن خالوية (المتوفي ٣٧٠هـ) وقد طبع ممزوجا مع شرح أبي سعيد السيرافي؛ شرح المقصورة لربيعة بن محمد المعمري في حدود سنة ٤٠٠هـ؛ شرح المقصورة للتبريزي (المتوفي ٥٠٢هـ) شرح المقصورة للزمخشري (المتوفي ٥٣٨هـ)؛ شرح المقصورة للجواليقي (المتوفي ٥٣٩هـ) شرح المقصورة لمحمد بن هشام اللخمي (المتوفي ٥٧٠) شرح المقصورة للمهلبي(حوالي ٥٦٠هـ) شرح المقصورة لعبدالله بن عمر الحضرمي (قبل سنة ٧٢٠) شرح المقصورة لنعيم بن سعيد مسعود (في حدود سنة ٧٠٠هـ) شرح المقصورة لعزالدين بن جماعة؛ شرح المقصورة لعبد القادر بن محمد الطبري (المتوفي ١٠٣٣) شرح المقصورة لمحمد بن الخليل الاحسايي (المتوفي ١٠٤٤) شرح المقصورة لمحمد بن سليمان الكماري الززي؛ شرح المقصورة لقدري محمد أفندي (١٠٦٥)؛ شرح المقصورة لسيدي ابن المختار الانتشايي (المتوفي ١٢٨٣) شرح المقصورة لعبدالقادر المكي بعنوان: الرايات المنشورة على شرح المقصورة».

ان تدلّ هذه الشروح الكثيرة فانما تدل على مكانة هذه القصيدة في الحضارة الاسلامية وهي كما قال شارحها ابن هشام: «فإنني لما رأيت كثيرًا من أهل الأدب الأندلسيين قد صَرَفُوا إلى مقصورة "أبي بكر بن دريد" رحمه الله عنايتهم، واهتمامهم، وجعلوها أمامَهم في اللغة وأمامهم لسهولة

ألفاظها، ونبل أغراضها، وثقة منشئها، واستفادة قارئها، واشتمالها على نحو الثلث من المقصور، واحتوائها على جزء من اللغة كبير، ولما ضمَّنها من المثل السائر، والخبر النادر، والمواعظ الحسنة، والحكم البالغة البينة، وقد عارضه فيها جماعةٌ من الشعراء فما شقوا غباره، ولا بلغوا مضماره، وهو رحمه الله عند أهل الآداب والراسخين في هذا الباب أشعر العلماء وأعلم الشعراء ألخ...» (آل ملحم، ٢٠٠١).

ومما يدل على مكانة المقصورة الدريدية في الأدب العربي اهتمام العالم الكبير الخطيب التبريزي - أبو زكريا علي بن محمد الشيباني التبريزي (٤٢١-٥٠٢هـ) - كان من ائمة اللغة والأدب وله مصنفات كثيرة : شرح ديوان الحماسة لأبي تمام؛ تهذيب إصلاح المنطق لابن سكيت، تهذيب الألفاظ لابن سكيت، شرح سقط الزند للمعري، شرح اختيارات المفضل، شرح القصائر العشر، شرح المشكل من ديوان ابي تمام، شرح شعر المتنبي وشرح المقصورة الدريدية (ديوان ابن دريد، ١٩٩٥، ص٢١).

إسهامات ابن دريد في ابداع الفنون الأدبية

أظهر أنواع القصص في القرن الرابع هو فن المقامات وهي القصص القصيرة التي يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية أو فلسفية أو خطرة وجدانية أو لمحة من لمحات الدعابة والمجون (مبارك، ج١، ص٢٤٢). لانريد الكلام عن كيفية إنشاء فن المقامات وما يتصل به من قيم فنية بل كل ما يهمنا هو اثر ابن دريد في إنشاء هذا اللون الأدبي، ومن حسن الحظ ان الباحث الأدبي الدكتور زكي مبارك (م.ن، صص٢٤١-٢٥١) اثبت ان ابن دريد هو الذي ابتكر هذا الفن الأدبي. وذلك بتاليفه كتاب "الأربعين" الذي ذكره الحصري في زهرالآداب. أنه كان نموذجا لبديع الزمان الهمذاني في كتابة مقاماته (بروكلمان، د.ت، ج٢، ص١٨٤). سمّي ابن دريد قصصه "أحاديث" ومع أنه مبتكر لفن المقامات فان عمل بديع الزمان في هذا الفن أقوي واظهر وطريقه في القصص تختلف عن طريق ابن دريد ولم تُسمّ تلك القصص بعده احاديث كما سمّاه ابن دريد وإنما سُمّيت مقامات كما سمّاها بديع الزمان (مبارك، د.ت، ج١، ص٢٤٧).

لم يقتصر تأثير احاديث ابن دريد على بديع الزمان وانما تاثر بهذا النتاج الأدبي العالم الموسوعي الكبير «أبو حيان التوحيدي». يقول أحمد درويش في مقال له منشورة في مجلة فصول النقدية: خبرة أبيحيان اذن بالنتاج السابق عليه وثيقة وإفادته منه معلنة. إذا نظرنا إلى الهكيل العام الذي طرأ من خلال حكاياته فإننا يمكن ان نلمح أثرا واضحا لنموذجين من الأطر السابقة عليه، نموذج "الأحاديث" الذي كان قد ظهر عند ابن دريد المتوفي ٣٢١، ونموذج "الليالي" الذي عرفته "هزار أفسان" الفارسية التي استقرت ترجمتها العربية فيما بعد تحت عنوان "ألف ليلة وليلة" (درويش، ١٩٩٦، ص١٦٨).

أما "الشعر التعليمي" فحسبنا ما أشار إليه شوقي ضيف في تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني: «وأما ابن دريد فكان عالما لغويا كبيرا ينظم الشعر ويحسنه وله ديوان مطبوع وقد عُني بتضمين طائفة من اشعاره بعض المعارف وأشهر ما له في هذا الباب مقصورته التي مدح بها عبدالله بن محمد ميكال والى الاهواز وابنه اسماعيل وقد بني قافيتها على الحرف المقصورة وجعلها في نحو مائتين وخمسين بيتا ويقال انه ضمّنها ثلث المقصورة في اللغة.. والطريف أن هذه الارجوزة التي قصد بها ابن دريد إلى أخذ الناس بحفظ الألفاظ المقصورة في اللغة لا تتعمق في الإغراب اللفظي، فقد استطاع أن يسلك الكثرة من الفاظها في أساليب سهلة يسيرة، وحتى الأساليب والصياغات الأخرى لا تتعمق في الإغراب مما يدلّ على مقدرته الشعرية البارعة» (ضيف، ١٩٧٥، ص٢٥١-٢٥٣).

لا يقتصر الشعر التعليمي عند ابن دريد في المقصورة، فله قصائد أخرى لهذه الغاية اللغوية التعليمية من ذلك قصائده فيما يذكّر ويؤنث من الأعضاء (ابن دريد، ١٩٩٥، ص٤٣-٤٤)[١] أو ما يؤنّث من الأعضاء ولا

١- مطلعها: وهذي ثماني جارحات عددتها تؤنث آحيانا وحينا تذكر

يذكر (م.ن، ص٣٩)[١]. وامثال ذلك متناثرة في ديوانه خاصة قصيدته في المقصور والممدود وقد اشتملت على سبع وخمسين كلمة مقصورة ومثلها ممدودة من نفس مادتها (م.ن، ص٢٩). على هذا النحو سخر ابن دريد الشعر ليحمل مواد لغوية تعليمية بجانب ما حمل قبله من مواد تاريخية وغير تاريخية (ضيف، ١٩٧٥، ص٢٥٤).

النتيجة

يتبين إذن، أنّ أبابكر محمد بن الحسن بن دريد هو الروح الكامن وراء الازدهار الحضاري في القرن الرابع وذلك بإسهاماته الكثيرة في مجالات التعليم والأدب والنقد والثقافة وإبداع الفنون الأدبية:

١. إسهامه الأول وهو أهم تأثيره في ازدهار الحضارة، مشاركته المؤثرة في التعليم اللغوي وتخزينه، أو إكمال المعرفة اللغوية التي تعدّ «أم المعارف» أو المرضع الأول لسائر العلوم متمثلاً في تلامذته الكثيرين، كأمثال السيرافي والرماني والزجاجي وأبي علي الفارسي.
٢. إسهامه الحضاري الثاني في الأدب والنقد المتمثل في تلامذته: أبي الفرج الاصفهاني، الآمدي، أبي هلال العسكري أبي علي الحاتمي والمرزباني.
٣. إسهامه الحضاري الثالث والكبير هو تأثيره على الحضارة الأندلسية عن طريق تلميذه الأول أبو علي القالي.
٤. إسهامه الحضاري الرابع يتمثل في تكوين الثقافة الأدبية وذلك بإنشاده قصيدته الرائعة «المقصورة» التي اهتمّ بها العلماء والأدباء طيلة القرون الماضية.
٥. وأخيرا إسهامه الحضاري الخامس تظهر في إبداع الفنون الأدبية: المقامة والشعر التعليمي.

١- مطلعها: الســـــاق والأذن والفـــخـــذان والقلب والضلع العوجاء والعضد

المصادر والمراجع

١. آذرنوش، آذرتاش (٢٠٠٨). ابن دريد الأزدي. المجلد ٣، طهران: دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، المجلد الثالث، http://www.cgie.org.ir/shavad.asp?id=130&avaid=119.

٢. آل ملحم، محمد بن عبداللطيف (٢٠٠١). أوراقي المبشرة: لمحات عابرة. جريدة اليوم، العدد ١٠٠٩٣ http://www.malmulhim.net/frmArticleDesc1.aspx?ArticleID=206.

٣. التوحيدي، محمود إبراهيم (١٩٩٥). مجلة فصول. المجلد ١٤، العدد الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، خريف.

٤. ابن خلكان، أحمد بن محمد (٢٠٠٣). وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان. القرص المدمج، دبي: المجمع الثقافي، www.cultural.org.ae.

٥. احمدوند، عباس (٢٠٠٩). تعليم ولي العهد في خلافة الأمويين والعباسيين. مجلة العلوم الانسانية، ١٦(٤)، الخريف.

٦. ابن دريد، أبوبكر محمد بن الحسن (١٩٩٥). ديوان ابن دريد. تحقيق راجي الأسمر، بيروت: دار الكتاب اللبناني.

٧. الجمحي، محمد بن سلام (١٩١٣). طبقات فحول الشعراء. لندن: مطبعة بريل.

٨. أبو الطيب اللغوي، عبدالواحد بن علي (٢٠٠٣). مراتب النحويين. القاهرة: دار الآفاق العربية.

٩. بالنثيا، رفاييل (١٩٩٩). أشبيلية الإسلامية: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس. الجزء ١، تحرير سلمي الخضرا الجيوسي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

١٠. بروكلمان، كارل (دون تا). تاريخ الأدب العربي. الجزء ٢: عبدالحليم النجار، الطبعة الرابعة، القاهرة: دار المعارف.